

طقس الشاي في ميتافيزيقا الطوارق: دراسة في أحلام السيولة وخيالات الارتواء لدى إبراهيم الكوني

Tea Ritual in Tuaregs Metaphysics: A Study of Dreams of Fluidity and Fantasies of Satiation in the Works of Ibrahim Al-Koni

د. دليلة زغودي*

المركز الجامعي مغنية (الجزائر) dalila.zeghoudi@cumaghnia.dz

تاريخ الاستلام: 2023/01/11 تاريخ القبول: 2023/07/01 تاريخ النشر: 2023/08/31

Abstract:

This study flows with the fantasies of abundance and dreams of satisfaction that are stirred up by the consumption of green tea among the Tuaregs. It endeavours to hint, through a number of Ibrahim Al-Koni's novels, the symbolism that emerges from the preparation and consumption rituals, which transform into a vast system of myths, rituals, and anthropological practices. It seeks to establish a hybrid structure of beliefs around which the anthropology of the desert people revolves. It also reveals some of the metaphysical aspects of traditional Tuareg metaphysics, which have been concealed by the limitations of orality. The study struggled to expand within this turbulent framework without exploring various fields and stretching through them to pursue the subject's peripheries and elucidate its complexity. It merged mythological and theological perspectives, incorporating anthropology into psychological analysis, and bridging phenomenology with anthropology. It aims to uncover a sign that evolves from its colour, overflows with a "divine" flavour, or teems with the density of its foam. It is sufficient to map out a complete psychological and cultural landscape that has remained untouched from recording.

Keywords: Tea, metaphysics, desert, rituals, satiation, yearning, contentment.

ملخص البحث:

تنساب هذه الدراسة مع خيالات الميوعة وأحلام الارتواء التي ينشطها مشروب الشاي الأخضر عند الطوارق، وتحاول أن تتتبع، عبر عدد من روايات إبراهيم الكوني، ما تثيره مناخات إعداد وطقوس احتسائه من رمزية تؤلب منظومة ضخمة من الأساطير والشعائر والممارسات الأنثروبولوجية... وتحين تركيبة هجينة من المعتقدات التي تأتلف حولها أنطولوجيا الإنسان الصحراوي. كيما تبدي بعضا مما توارى من ميتافيزيقا شعب الطوارق التقليدي، وطمرته محدودية المشافهة. وقد استعصى على الدراسة الانتشار في هذا المدى المتلاطم دون استثمار ميادين متنوعة، والتمدد عبرها لملاحقة شوارد الموضوع وتبين شططه، فجمعت بين الرؤية الميثولوجية والرؤية التيولوجية، وضمت الأنثروبولوجيا إلى التحليل النفسي، وألفت بين الفينومينولوجيا والأنطولوجيا، وهي تسعى إثر دلالة تطفر من لونه، أو تطفح بها نكهته "الإلهية"، أو تفيض من كثافة رغوته.. تكون كافية لتحريك خارطة سيكولوجية وثقافية كاملة ظلت بمنأى عن التدوين.

الكلمات المفتاحية: الشاي؛ الميتافيزيقا؛ الصحراء؛ الطقوس؛ الارتواء؛ الاستيهامات؛ النعيم.

مقدمة:

تنقش قساوة الحياة الصحراوية وتترطب جفوتها، ويتندى منها الجلف مع جلسات الشاي السعيدة؛ حيث تفيء الأجساد الجافة المتشققة من نار الوهج الحارق إلى انسيابية الوعاء الفوار؛ وهو ينثر رذاذ رطوبته بخورا يضوع بشذى النداء والارتواء. إذ تمثل جلسات الشاي وطقوس الاستقبال، انقطاعا نعيميا في هذا الجحيم المسترسل؛ يخرج بها الصحراويون المنهكون من شظف اليومي وعنته، ويدخلون في هناءة السائل الأخضر " طازج الحيوية في خضرته" ¹ يستجوفون انتعاشه، ويستدعون الصور السائلة للمادة التي يثيرها من حوله، "فالعالم قبل أن يكون نسقا من الأدوات، هو مجموعة من الأغذية وحياة الإنسان في العالم لن تبتعد خارج الأشياء التي تملأه" ²

وتناول الشاي يتعدى حدود الممارسة اليومية المألوفة، ويتحول، في عرف أمة الطوارق المهاجرة، إلى "شراب طوطم" ³ ينشط حوله جملة من الأساطير المتعارضة دون حرج ⁴، "ينفع البرد والحر" ⁵، وينطبق عليه وصف باشلار للنبيذ الذي: "يدفئ مزاجا رطبا ويابس، ويبرد مزاجا حارا وجافا" ⁶، ويدخل في الحياة الاجتماعية كضرورة لا تحرم منها أي طبقة، سواء أضربت في الغنى صعدا أم نزلت في الفقر هبوطا.

1- ولأهمية الشاي:

يلزم الشاي المناسبات الاحتفالية، وطقوس الاستقبال والضيافة، فيترع على عرش الملذات والأطياب شرابا احتفاليا تنتفي، بغيا به، أجواء الانشراح وبهجة الأعياد؛ إذ تحتسى أكواب الشاي الأخضر، في أدوار، إثر الفروج من الطعام الولائي؛ "بعد غداء الكسكي الفاخر المتوج بشرائح لحم الغزلان والخرفان بدأت طقوس الشاي الصيني الأخضر" ⁷، حيث يأخذ الشاي نصيبه من الطقوسية الاحتفالية وتوقّر له العدة الخاصة، ويحاط تحضيره بجملة من التقاليد التي تتطلب المهارة والبراعة، وتقضي الإتقان وتفرض "قواعد سلوك" (إتيكيت) ⁸. ما يجنح به، أكثر الأحيان، إلى أن يصير احتكارا خاصا بذوي الخبرة من الشيوخ؛ الذين حنكتهم تجارب الحياة وأهلتهم مداراة الصحراء طويلا، إلى أن يستخلصوا من جفاف العجفة، عصارة ترطب ما استفحل حولهم من تقشف...

يرد الشاي في سياقات كثيرة لا كتلبية لحاجة فردية روتينية تقضى كيفما اتفق في عجلة، وعلى نحو مستقل، وإنما كاستجابة لنداء الاجتماع ودعوة التقارب بين الأفراد؛ ولحُم عرى الجماعة؛ "فالبينة الصحراوية وغلاء هذا المشروب والقيمة التي تعطى له، والخشوع الذي تتميز به جلسة الشاي، كل هذه العوامل عادة ما تمنحه نوعا من الاحتفالية والطقوسية اللتين تخلقان مناخا ملائما للعلاقات الإنسانية داخل المجتمع، فبعد تناول الكأس الثالث تبدأ المناقشات الجادة والمواضيع المطروحة للنقاش" ⁹، وقد اعتبر فرويد أن " كل طعام مشترك في الأزمنة المتأخرة، أي المشاركة في نفس المادة التي تدخل الجسم يحقق رباطا مقدسا بين المتماثلين" ¹⁰. هكذا يدعم الشاي حسّ المجموعة ويعضدها وهو يضمّ، حول عبقه، أفئدة الجماعة وينثر ذراته الندية تلأم المتفرقين حول حميمية ملذة المشروب وسحريته.

تسري طاقة الشاي الابتهاجية في أجساد المجتمعين، وتحلّهم من مستلزمات الصرامة والتكلف مخففة من غلواء أعراف الوقار والرصانة القامعة، ومخيلة السبيل للتبسط والتخفف من ثقل القيود المعهودة؛ حين تُغرّق جدار الصمت الذي اتخذته هذه الملة وجاء من زلل اللسان المستور باللاثام وانفلاته. فتجد المحادثة

طريقها إليهم بين رشفات الشاي المحيطة لطوق اللثام؛ حينما تتدفق سيولة الشاي على المجتمعين تسخّ عليهم بالبلل والطرّاة فتعوّم العضلة الملجومة، وترطبّ ما استحكم حولها من أطواق الإشارة مفرجة عن منافذ تتسلّل منها العبارة.. ليستفيض الكلام الملجوم.

وهي تقتلع المحتسي من عزلته الفردية وتقذف به في جسد الجماعة؛ حيث تعمّ قيم التفاعل والمشاركة؛ ف"من الإدراك الحسي الجمالي الخاص والفردى إلى البعد الاجتماعي العام، يغدو الطعام من أهم وسائل شدّ اللحمة الاجتماعية وتوثيق الترابط بين الأفراد"¹¹، فيتّم تقاسم لذة الشاي المتدفق من وعاء جماعي من جهة، وتبادل اللغة من الجهة الأخرى، ليساهما معا- الشاي والمحادثة- في تحرير عضلة الفم من حبسها، كيما تهيمن القيم الفموية وقد صارت في حلّ من الكبت ف: "الفم والشفاه هما التربة الصالحة لأول هناء إيجابى دقيق، تربة الشهوية المتاحة"¹²، وكىما يتسنى للطارقى المنهك أن ينطلق إلى حضان اللذائذ الطفولية الغامرة؛ كما يبدو هنا؛ "قرّر أن يشرف على تحضير الشاي بنفسه، ثم أزاح اللثام قليلا عن فمه، بحيث يكشف عن أسنانه، فأطلت لحيته الفضية من تحت اللثام أيضا ابتسم لها ابتسامة كبيرة وهي تناوله عدة الشاي"¹³.

ليس غير مقام الشاي مخوّل بالتبسّط وهو يعيد الصحراوي -الذي يكتفى بلغة العيون من تحت قناعه ابتساما وتجهّما- إلى فطرته الطفولية؛ أين تسود القيم الفموية بكل مباهجها ونهمها الاجتيافي، فيما تتهاوى حجب التحريم والمنع والعار الملفوف بها، وتتساقط رواسب الكفّ والكبت المتكلسة. وهو إذ يمتصّ السائل [السعيد] من الكوب منتشيا؛ "فإنما ينشد في هذا الفعل لذة سبق له أن خبرها، وهي تعود الآن إلى ذاكرته"¹⁴ إنها لذة مصّ الثدي الأمومي المدرّ.

إن في إقبال الصحراوي على هذا الشراب الطوظم ضمن طقس جماعي، وهو يفضح عورة الفم*، شيء من معاقرة المحرّم الذي يجد له تسويغا ضمن الممارسة الجماعية، فيما يبرئ كل فرد على حدة من تبعات الانتهاك¹⁵ بحسب مقتضيات "الوليمة الطوطمية".

2-جنسنة الشاي:

إن للقاء الجنس والغذاء على الحاجة البيولوجية الأساسية والضرورية للبقاء، وتضافر سياقاتهما اللّذيّة على التناسل والهضم، واشتجار أعضائهما في الممارسة، ناهيك عن تقاطعهما، بدء، في عضو الفم والشفاه عبر نشاط المصّ، لا يترك مجالا للقطيعة بينهما؛ ما يجعل من الرغبة الجنسية مجرد شهية متكررة للّحم البشري-على حد قول ليفي ستروس-¹⁶ اشتجار تدعّمه سياقات القصة الأولى؛ وهي تقرن بين قضم الفاكهة المحرمة واكتشاف العري المؤذن بطفح الشوق للآخر. وقد ورد في القرآن الكريم؛ ((فَدَلَاهُمَا يَغُرُّورَ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ))¹⁷، وفي سفر التكوين نجد؛ "فَرَأَتِ الْمَرْأَةُ أَنَّ الشَّجَرَةَ جَيِّدَةٌ لِلْأَكْلِ، وَأَنَّهَا بَهْجَةٌ لِلْعُيُونِ أَنْ تَرَاهَا، وَأَنَّهَا حَسَنَةٌ لِلتَّامُّلِ، فَأَخَذَتْ مِنْ ثَمَارِهَا وَأَكَلَتْ، فَانْفَتَحَتْ أَعْيُنُ الْاِثْنَيْنِ، وَعَلِمَا أَنَّهُمَا كَانَا عُرْيَانَيْنِ، فَخَاطَا أَوْرَاقَ تَيْنٍ وَصَنَعَا لِنَفْسَيْهِمَا مَازَرَ"¹⁸.

هكذا يدخل الغذاء إلى السجل الاجتماعي متجنسنا، ويحوّط- على غرار الجنس- بقواعد ومحرمات "تعزّز المعتقدات الأساسية للنظام الاجتماعي وأبرزها المعتقدات المرتبطة بالنوعين (الرجال والنساء)"¹⁹ وتخضع الطعام، في أحيان كثيرة، إلى صنافات جندرية تذكيها "الاستهيامات والاستعدادات والرواسب الثقافية

والاجتماعية التي تجعل من الطعام حليفا استراتيجيا لحدي الفحولة والخصوبة"²⁰؛ يستتبع تحييز الشاي- عند الطوارق- كاختصاص ذكوري يحتكر الرجال تحضيره، وتبقى النساء دون مراتب الإجادة فيه؛ مثلما يتبين من هذا المقطع؛ "مؤسف حقا حظ النساء في صنع الشاي، لم أسمع أن ذاع صيت امرأة في الصحراء اشتهرت في إعداد الشاي"²¹، بل وتلحق به صفة النقصان الملازمة للنوع الأنثوي؛ كما يظهر من هذا الملفوظ؛ "تناول كأس الشاي فلاحظ أنه بدون رغوة، قال في نفسه إن الشاي أعدّ من يد امرأة. النساء فقط يجهن صنع الرغوة. رشف الشاي فأحسّ بطعم عطر "باريسيّان" العطر أفسد طعم الشاي وقضى على الرغوة[...]" وضع غوما الكأس على الأرض"²²، إن النساء وقد جبلن على النقص العضوي، وانحسرت عن رؤوسهن الحكمة التي تجلّ رؤوس الرجال الأجواد وتتوّجها، مع عمائم الوقار - لا يسعين إلا تقديم شاي انحسر عنه الطربوش الأبيض المزبد الذي يتمم بهاء الكوب المشتى وهو يطفح بها لذادة وفورة. إذ كثيرا ما ترد عبارة "المتوّج بالرغوة" صفة للشاي المتقن، كدمغة ذات بصمة ذكورية؛ "صمت غوما وهو يتناول كوب الشاي المتوّج بالرغوة، أزاح اللثام ورشف من الكوب رشفتين متتاليتين قال وهو يتذوق طعم الشاي: آه.. هذا شاي ممتاز يا شيخ مهمدو"²³

عدا عن ذلك، فإن سياقات تحضير الشاي على الحطب، بصبر وتؤدة، تتلاغى مع فنون العشق وحبّ النساء؛ وتتماهى مع استهجمات الفحولة ف "لا يستطيع أن يتقن الشاي من لا يتقن العشق"²⁴ ولا يتقن تجويد الشاي إلا من أوتي براعة عشق النساء وتمتع بالصبر والحكمة. وخبر شؤون تحميم الشهوات على جمر الرغبة المتقد؛ وهي صفة غالبا ما تفوت طيش الشباب ونزقهم، فيذهبون في تحضير الشاي مذههم العجول في إدارة تصارييف العشق. ويحرمون من كنوز متعته ويتخلفون عن شهقة ذروته؛ "منذ دخلنا غات وهؤلاء الشباب الطائشون يسقوننا الماء الملوّن مدّعين أن هذا شاي -إنه غسيل جلود مدبوغة، إنه غسيل جذوع شجرة الطلح ولا يشبه الشاي إلا بالاسم، لا تنقصهم الخبرة ولكنهم طائشون، صدقني صناعة الشاي الأخضر مثل طقوس العشق تحتاج إلى الصبر والإتقان، تحتاج إلى أن تضع فيها قطعة من قلبك تصب فيها جزء من روحك، وإذا كان هؤلاء الصبية يعشقون زوجاتهم كما يحضرون الشاي فإن تطليقهن منهم حلال، لن ألومهن إذا طالبن بالطلاق. إن إعداد الشاي شيء يشبه صيد الغزلان. لن يكون لحم الغزال شهيا حقا إلا إذا كان الصياد يعشق الغزلان!"²⁵.

إن عنفوان الشباب الذي تحتاجه رعى القتال؛ سرعان ما يغدو طيشا وهو بإزاء طقوس إعداد الشاي ذات الصيغة الجمالية [التعبدية]. التي تتصل بالحبّ لا بالاندفاع. وإذا كان الشباب الطائشون عديبي الخبرة في العشق، فإن غفلتهم عن سرّ إعداد الشاي أمر محتوم لأن كل ما في الشاي مؤنث؛ الماء والنار والوعاء والأوراق ذات الأصل الشجري، والكأس أيضا. وهو ما يرجح كفة الشيوخ؛ ممن هدأت ثائرتهم وخولهم مراسيم الطويل بالحياة إلى استخلاص جوهر ملذاتها وتقطيرها على مهل؛ "لست خبيرا مثلك يا شيخ غوما إنك تتحدث عنه كأنك تتحدث عن صبية حسنة!"²⁶. وعلى غرار العشق، وهو يحمل "حلم انصهار العاشق بالمعشوق"²⁷ فإن عشق الشاي يقتضي تذويب شيء من روح محضّره فيه. واستدماجه بقصد تحقيق التماهي معه²⁸ تعيدنا الملابس المحايثة للشاي والسياقات الحافة به إلى الروح الأنثوية وقد ألفت -كشأن كل ألوهة قمرية مؤنثة (عشتار، أفروديت، تانيت...) - بين الأم والزوجة.

3- الأصل النباتي للشاي:

تلازم سمة الخضرة الشاي في جميع سياقاته، فالشاي الذي يروي عروق الصحراوي هو الشاي الصيني الأخضر*، أما الشاي الأحمر فينحصر ذكره في مضان محدودة؛ حينما يتصل الأمر بشاي معد للأطفال²⁹ أو في حال جلسة هامشية متجردة من أشراف الطقوسية الجماعية.

إن الأصل النباتي للشاي الذي يترحل من الصين* ويطوف العالم أوراقا مجففة، ومحفوظة بعيدا عن الشمس تستعيد خضرتها وتقوم من موتها في عتم غمر الوعاء، لتستحضر هنا الأسطورة الزراعية الأقدم؛ أسطورة "تموز" - أو الأخضر* - "ربّ الإنبات والدورة الزراعية، الإله الحي الميت، والميت الحي"³⁰، وتشير إلى الروح النباتية في الطبيعة، حيث تصوّر الأسطورة تموز الوليد وقد ولد من جذع الشجرة³¹؛ تماما كأوراق الشاي المنبتقة من شجرة الشاي. وتتساق مع الرؤية التي تلحق بإيقاع النبات "أفكار التجدد والشباب الأبدي والصحة والخلود"³²؛ إذ يستثير الشاي دلالات الانبعاث والقيامة التي يعلّق بها البدوي المنقطع في هذا القفر المجذب، رجاءه وأحلامه ويدخل هذا "الشراب في ميثولوجيا النبات المساوية والدورية"³³.

تعلّق هذه الدورية النباتية، المتأصلة في أوراق الشاي، بعادات تعاطيه المنظمة في أدوار؛ حيث تدار الأكواب المتوجة بطرايش الرغوة على المجتمعين في أدوار تكررّ فعل التناول مرارا؛ فقد كان غوما "يحتسي الدّور الأول والثاني في الصباح، وثلاثة أدوار بعد الظهر. أما في المساء فيمكث الوعاء يئن فوق الجمر لوقت متأخر من الليل حتى يغلبه النعاس"³⁴ ولعل الطاقة الابتعائية لهذا المشروب [السحري] هي ما يدفع الشيوخ إلى إدامانه بحثا عن عود إلى شباب أبدي يقطع سبل العجز إليهم؛ ففي الشاي بعض من عشبة الخلود التي أعييت جليجامش. وفي احتسائه انخراط في الإيقاع النباتي المنطوي على سر التجدد والشباب والخلود³⁵. وكوب الشاي هنا "يوجد في منتصف الطريق بين صور البطن الهضمي أو الجنسي وصور سائل التغذية، إكسير الحياة والشباب"³⁶.

إن صورة الأوراق [الميتة] تبتعث حيّة في الماء وقد حرّكت النار لواعجه، وحدها قمينة ببعث القيم التي يكتنزها الشاي الأخضر؛ روح الأوراق؛ وخالصة الخضرة وجوهر الطاقة النباتية النمائية المتجددة، أما مضغها جافة دون غليها فإنه يحرمها من السريان في جسد الشارب وروحه ويبطل جوهرها الابتعائي، ويفقدها خصائصها المهدئة والعلاجية؛ "اضطر غوما أن يطوف على المقاتلين من مختلف المناطق بحثا عن بقايا باردة من الشاي، انتهت جهوده إلى الفشل فجاء من أمتعته بحفنة من أوراق الشاي فقدمها لرفيقه ونصحه أن يمضغها جيدا ويدسها تحت لسانه، لعابه يزيل الألم ويخفف الصداع. في قلب الليل عاد العراف يشتكي من الوجع ويلج كالطفل للحصول على كأس شاي"³⁷ فالجوهر النباتي الجاف يحتاج إلى سريان عنصر الماء في هذا الكائن المفطور من التراب كيما يتفتق عن طاقة الحياة. ويغدو "مادة وسيطة [روحية] تقودهم نحو قوة الطبيعة الأصلية"³⁸. إذ يؤلّب الشاي الأخضر من حوله مناخات الخضرة وينعش سياقات النبات؛ وهو يعدّ على نار من حطب الأشجار الصحراوية النادرة؛ "قال وهو يعدّ موقد النار:

-سوف أساهم معك في إعداد نار تليق بشاي يصنع من يدك، نار حطها من الطلح الخالص"³⁹، حيث النار قوة إلهية غامضة تندلع من الشجر؛ رأى فيها البدائي "قبسا من قوة القمر أودع في الحياة النباتية"⁴⁰ وهي، من ثمّ، إحدى هبات الأم القمرية، التي تمثل روح الغاب وسيّدة الحياة النباتية المهيّجة لأحلام العشب

والغابات الوارفة والجنان التي تراود خيال الصحراوي في هذا المدى القاحل، وتغذي، لديه، صور الخضرة والحياة والريّ. وحيث الورقة تمثل حلما ظلّيلًا بالشجرة.

ولعل أقنوم الشاي الأخضر هو "اليخضور": السائل الذي يسري في الطبيعة النباتية حياة، إنه الجوهر الغذائي المستخلص من الحياة النباتية في شكلها الأوفى مع "الشجرة": في هيئة عصارة أو نسغ يمتد إلى ما يفوق الكون الإنساني، ويدخل ضمن المسروقات الإلهية المسربة للبشر -من قبيل نار بروميثيوس⁴¹؛ "إنه بلسم رباني يشفي من أمراض الروح وآلام الصحراء"⁴² لأنه محاط بـ"هالة إلهية"⁴³ وهو يتحلّى بصفات "الشرب المقدس"⁴⁴ الذي يدحر واقعية الصحراء الملهبة والجافة تاركا لأحلام النداة والخصوبة والإيناع، منافذ كي تتسرب..

4- أمومية الشاي:

تسمح الطبيعة السائلة للشاي بإقراره في العمق اللاشعوري كماء؛ وإقامته من ثمّ "ضمن سيرورة التعبير عن الوقائع السائلة" كحليب؛ "أول موصوف فموي"⁴⁵ ومشروب الأمومة السعيد،* الذي يمتصّه البدوي من فم الكأس باللذة ذاتها التي خبرها وهو يمص حلمة ثدي أمه، فيتدفق المشروب الدافئ اللذيذ نزولا إلى الأعماق الهضمية الحميمة، وينتشر في كيانه استرخاء وشبعا وغبطة.

وكرضيع سعيد، تلتصق عيناه من هناءة الشبع وغبطته عقب رضعة مشبعة؛ يتبدى الشيخ "غوما" في هذا المقطع؛ "قال مهمدو وهو يستضيفه بكأس شاي أخضر متقن الصنع لم يذق غوما لمثله طعما منذ شهور، لم يمدح غوما نوع الشاي كما لم يثن على جهود العراف في تحضيره، ولكن مهمدو رأى الامتنان في عيني صديقه"⁴⁶

تتعمّم خصائص الحليب الأمومي على الشاي الذي يتعاطاه الصحراوي في أدوار تحاكي الرضعات التي يأخذها الرضيع منتظمة في أطواره الأولى، وهو المشروب الأساسي⁴⁷ بالنسبة للصحراوي -أيا كان مستواه - يتماهى مع المشروب الأمومي المغذي؛ فقد كان غوما مثلاً يستطيع "أن يمتنع عن الأكل ويصوم عن الطعام أياما كاملة مفلسا ذلك بأنه مفيد للمعدة ومقو للعضلات ولكنه لا يستطيع ان يبقى يوما واحدا بلا كأس من الشاي الصيني الأخضر، عندها يصيبه الصداع والدوار ويهاجمه المرض حتى يلزم الفراش، ولذا فإنه يحرص على أن يتزود بالشاي قبل أي زاد آخر في رحلاته"⁴⁸

ثم إن بياض الرغوة وقد كلّلت أكواب الشاي، متقن الصنع، ليستدعي إلى الأذهان بياض الحليب؛ ويذكر بمرأى الأوعية المخصصة لحلب البقر والماعز وقد علّتها فقاعات الرغوة الحليبية التي تشير إلى الوفرة والغزارة وقوة التدفق، فالشاي الحسير لا يستطاب ولا يستلذّ، أظهرته متون الكوني ممجوجا منفرا؛ "جاء الزنجي يحمل طبقا صفت عليه كؤوس الشاي، الشاي حاسر الرأس، عار من الرغوة كزيت ، فأثار اشمئزاز الشيخ غوما فورا تناول رشفة للمجاملة ثم وضع الكأس على طرف الطاولة"⁴⁹

إن الشاي وهو يتماهى مع الشراب الأمومي الأولي، يحتفظ بصورة النقاوة والخلوص من الشوائب، إنه شراب خالص مصقّى لا يحمّد فيه الخلط، ويعدّ كلّ شوبٍ في حقه إفسادا وتكديرا؛ "صمت ثم مدّ يده ورشف من كأس الشاي الرديء على مضض، رائحة العطر في الشاي تثير الغثيان ولكنه اضطر أن يشرب مجاملة لأهر. صب له أهر كأسا آخر فغافله، ودلق الكأس في الرمل، وأهال عليه التراب"⁵⁰.

1-4- الوعاء:

تُسَدَّعى المعطيات الأمومية مرارا في سياقات إعداد الشاي وتناوله؛ وتبثّ في قرائن دالة عليها قد يكون "الوعاء" أحدها؛ إذ يحيل إلى الوعاء الحاوي للحياة؛ الحامل الأول أي الرّحم، ومن المعلوم ان الوعاء كان يتخذ رمزا للجسد الأنثوي عند أمم الشرق الأدنى القديم⁵¹؛ ففيه تترى بذرة الحياة، ومنه تنبثق إلى الوجود مكتملة التخلق؛ وهو "أشبه بالوعاء السحري الذي يتحول في داخله الدم إلى حليب يتفجر من فوهة الشدي، والمستودع الذي تختمر في ظلماته بذور الحياة لتنتقل من بوابة الرحم"⁵²، حيث تقذف حبات الشاي داخل حوض الوعاء، تسبح في عمق المياه الدافئة، تتمدد وتنسبط وسط خامة التكوين متخذة شكلا مكتملا للوليد النباتي، للأخضر الأسطوري؛ وكان تموز قد ولد في الأساطير القديمة "من جذع الشجرة ومن رحم الأم الكبرى في آن"⁵³.

ينهض الوعاء الحاوي بدور الولادة الثانية أيضا إذ تقوم منه أوراق الشاي المجففة، التي اختزنت سرّ الطبيعة وخلصتها، من جديد بعد موتها في فعل شبيه بابتعاث الإله الميت في معتقدات الخلاص؛ حيث يقوم إله الحياة النباتية من هجعتة مؤذنا بحلول فصل الربيع، وتجدد دورة الحياة على نحو ما يبوء به طقس المعمودية في ديانات الأسرار؛ وهو يمثل عبورا من الحالة الخام إلى حالة جديدة مؤهلة بعد المرور بعنصر الماء التعميدي المطهر، للدخول في "ملكوت الله"⁵⁴، وتحقيق شرط الولادة الثانية بـ"الدفن في الماء في جرن المعمودية"⁵⁵ والقيامة منه، اقتداء بسيرة الإله المخلص، وتلبسا بمساره الابتعائي. وفي هذه الولادة الثانية يبلغ الصحراوي الذي ظل "على ميعاد مع الظمأ منذ الأزل، منذ الخروج من بساتين "واو" وبدء رحلة التيه في أرض القفر"⁵⁶ ارتواءه ويحقق خلاصه من "جحيم" الصحراء.

عدا عن ذلك فإن نار الموقد المعدّة لوعاء الشاي والتي "حطّما من الطلح الخالص"⁵⁷، تعيدنا إلى "الشجرة" - رمز الإلهة الأم والحاملة لروح الخصوبة والإنبات، ومصدر النّار ذات الأصل الإلهي في أعراف الإنسان القديم*، وقد ورد في القرآن الكريم أيضا قوله تعالى: ((الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ))⁵⁸. وفي اجتماع الصحراويين حول وعاء الشاي الشّادي فوق موقد النار الشجرية، تخفيف لوحشتهم ولمّ شملهم الشّتيت في الصحاري، في وضع يستعيد حال أفراد الجماعة البدائية المؤتلفين حول شعلة الأنثى الأم التي كانوا يرون فيها "مركز جذب وعامل تأليف"⁵⁹، دور تنهض به الأم في كل أسرة.

2-4- المغارة:

ومن الأفضية المثقلة بحمولة الأمومي، والمتواترة في سياقات تحضير الشاي واحتسائه، نجد فضاء المغارة (أو الكهف)؛ أقوى صور السّكن الفردوسي الأول، حيث الرطوبة والعتمة تشيران إلى سكيئة الرّحم الأمومي وأمانه. وفي تجويفه، وجد الإنسان الأول ملاذا من أخطار العالم وأهواله. وكان العراف "مهمدو" - في رباعية الخسوف - يسكن مغارة جبلية اتخذها الأسلاف مدفنا لموتاهم "تطل عليه من جدرانها عظام الموتى وجماجمهم؛ "خَشِيَّ الشَّيْخُ أَنْ يَكُونَ الْمَرَضُ قَدْ أَلَمَ بِالْعَجُوزِ فَدَخَلَ الْمَغَارَةَ، كَانَتْ تَفُوحُ بِالرُّطُوبَةِ وَالْعَرَقِ وَالْعِظَامِ الْقَدِيمَةِ. هَذِهِ الْمَرَّةَ الثَّانِيَةَ الَّتِي يَضْطَرُّ فِيهَا لِرُؤْيَيْهَا مِنَ الدَّخْلِ. مَا زَالَتْ

الجماجم المفقوءة العينين تطل من جدرانها بل خيل له أن عظام الجماجم ازدادت بياضا. كم هي موحشة جدران المغارة! في الركن رقد مهمدو ملفوفا ببطانية كثيفة لا تناسب الجو الخانق..⁶⁰

وكان مهمدو يستضيف الشيخ غوما بالشاي الأخضر الصيني؛ يلجأ إليه الأخير في مغارته مثقلا بهوم الواحة، فيهنأ معه في فيء الكهف بكوب شاي جيد الصنع، يستعيدان "طمأنينة الحياة الأولى الخالية من الهموم"⁶¹ وهما يتلذذان، معا، بمص هذا المشروب الأمومي السعيد؛ "صمت غوما وهو يتناول كوب الشاي المتوج بالرغوة، أزاح لثامه ورشف من الكوب رشفتين متتاليتين قال وهو يتذوق طعم الشاي:

-آه.. هذا شاي ممتاز يا شيخ مهمدو

رشف رشفة أخرى وأضاف:

-شاي ممتع أفلحت في تحضيره

ابتسم مهمدو كان سعيدا لأنه استطاع أن يسعد الشيخ غوما بكوب الشاي الجيد"⁶²

إن مشهد الشيخين؛ ينعمان باحتساء كوبين جيدين من الشاي الأخضر في مدخل مغارة جبلية، بجوار الموتى، وبعيدا عن ضوضاء الواحة وزحام حياتها اليومية المرهق، ليرسم لنا صورة جنينين في الرحم يصل إليهما جوهر العنصر الغذائي في الطبيعة سائغا بلا عناء، سيما وأن المدفن، أو القبر وبطن الأم يتحدان في الصورة النفسية للاحتواء⁶³. أين تغدو كل بهجة طيفا للبهجة البدئية المشهودة داخل الأحشاء الأمومية، وترجعا لها

⁶⁴

5- الشاي والمقدس:

يظهر المقدس في الوجود كتجلٍ لشيء "مغاير"، واقعة لا تنتمي إلى عالمنا، في أشياء تشكّل جزء من عالمنا "الطبيعي" و"الديني"⁶⁵، وقد مثل الشاي في أعمال الكوني أحد هذه الأشياء "الدينية" التي شكلت مجلى للمقدس؛ فهو بدء نبتة تزود بها الجدّ الأول متاعا من جنان الخلد في رحلة الهبوط؛ "شراب الفردوس، السائل الخرافي الذي يشبهه الصحراويون بشراب واو الموعود، ولم يذوقوا طعما لشراب يوازيه متعة منذ أخذ الجدّ الأول أوراق النبتة السحرية من واو ودخل بها الصحراء"⁶⁶ هو إذن، أحد المتعلقات الإلهية المفارقة التي تم تسريبها إلى البشر - في غفلة من الإله - ويمثل في الوجود [الديني] نفحة من هبات الفردوس الأول ببعديه؛ المحيل منهما على جنان المعتقد، والمثير للجنان الأمومية المختزلة في رمزية الشجرة، معا. فالأصول النباتية للشاي تعود به إلى الأرومة الشجرية في الميثولوجيا الزراعية؛ التي تتخذ الشجرة رمزا للإلهة الأم المجسدة لروح الخصوبة⁶⁷، وبهذا الخصوص تطلعن المنحوتات والأختام السومرية على مشاهد تجاور بين الشراب المقدس وبين صورة شجرة الحياة⁶⁸

ثم إن الطقسية التي تحفّ إعداد الشاي، وترافق صبّه في الأكواب ضمن شروط معينة (الرفع من الوعاء لاستحلاب الرغوة)، وما يثيره من مناخ الخشوع والهيبة، تسبل عليه صبغة "المشروب المقدس" الذي يرتبط بأنساق التجدد الدورية ورمزية الشجرة وبصفتي الابتلاع والحميمية⁶⁹

1-5- الإله الميت - الحي:

إن الشاي- الوليد الإلهي الميت الذي يبعث حيا مع كل دورة جديدة للطبيعة- ليستوفي عناصر الدرام الإلهي الكوني⁷⁰ حيث تصحو الأوراق الخضر المختزلة لروح النبات- بعد رحلة الجفاف والموت وتبتعث حية قوية ومتجددة، تنشر قيم البعث والتجدد والصحة والخلود في شارب خلاصتها. وعلى غرار الإله الزراعي "تموز" أو "دموزي" الذي يصعد من العالم السفلي بمساعدة الإلهة الأم (عشتار) ورعايتها، فإن أوراق الشاي الميتة لا تقوم من موتها، وتنتفض من قبرها إلا بعد المرور ببرزخ الأم، ممثلة بأحد رموزها، وهو الوعاء المنطوي على الماء؛ عنصر الخلق الأول؛ حيث الاستدارة الحميمية الرطبة تقوم بالدور الأولي في الولادة ورعاية الحياة.

2-5- الكأس المقدسة:

إن كأس الشاي الأخضر المتوجة بالرغوة التي يتلقفها الصحراوي الطمئ بخشوع ورهبة؛ وفق طقسية جماعية خاصة، أغلب الأحيان، يسودها الاحتفال، ليجد له على نحو من الأنحاء وشيجة بالكأس* المقدسة المشتركة بين معتقدات وديانات عديدة، وهي تكتنز في بعدها القدسي رمزية "الأم البدئية، المرضعة والحارسة"⁷¹، فقد اتخذت الأوعية والأواني في الطقوس؛ وطقوس التضحية أو القربان منها بشكل خاص⁷². وليست الكأس التي يرمز إليها عادة بالمثلث المقلوب إلا رمزا آخر للإلهة الأم التي نلفها تتكرر في رسوم الشعوب الأمومية القديمة ونقوشها في شكل تمثيلي مختزل لعضو الأنوثة، أو لمنطقة الحوض التي يترعرع بها الوليد. والتحليل النفسي -من جهته- قد برهن على وجود مسار متواصل بين الرحم والكأس⁷³. كما اتخذ شكل المثلث⁷⁴ رمزا قمريا توارثته سلسلة الإلهات؛ من إنانا السومرية إلى عشتار البابلية، وعناة الكنعانية.. فتانيت القرطاجية..

وهو يستدعي أيضا الكأس المقدسة في طقس المناولة (الأفخارستيا)* الرامي إلى الاتحاد بالمخلص ونوال الخلود بالاشتراك معه في الحياة الأبدية⁷⁵، إذ يلتقي الشاي؛ شراب شجرة الشاي، بالنسبة للصحراوي، مع نبذ الكرمة في معتقدات الشعوب الزراعية الشرقية (التي تحدر منها المسيح مجسدا آخر حلقة في سلسلة آلهة الخصب الزراعيين في منطقة الشرق الأدنى القديم)⁷⁶. ويتم فيها تناول خبز القربان على أنه جسد المسيح المخلص، والشرب من كأس النبذ على أنها دمه، وقد ورد في إنجيل متى قوله؛ "وفيما هم يأكلون أخذ يسوع الخبز وبارك وكسر وأعطى التلاميذ وقال: خذوا هذا هو جسدي، وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلا: اشربوا منها كلكم، لأن هذا هو دمي الذي للعهد الجديد، الذي يسفك من أجل الكثيرين لمغفرة الخطايا"⁷⁷. ففي كل طعام أو شراب يدخل الجسد تجدد هذه المجتمعات (المتدينة)- التي ظلت بمنأى عن حضارة العلم- تناول القربان وتحييه متخطية الشرط الفيزيولوجي⁷⁸ [الدنيوي]، حيث يرمي الأكل والشرب إلى التوحد مع الإله في الجوهر "وتثبتت للإلهي في الروح البشرية"⁷⁹

وتتم أركان مشهدية سرّ التناول حينما يرفق الشاي في الأسفار الصحراوية بأقراص "خبز الملل"؛ الذي يتوخى، بدوره، سيرة إله الخصب؛ حامل روح القمح فيدفن في حميم الرمل المتقدم، ويرسل منه مرة أخرى ناضجا مطهوا (خبز البرشان) بما يتماهى مع جسد الإله وهو يقدم نفسه قربانا.

وإذا كانت سياقات مرافقة خبز الملال مع الشاي عرضية وغير لازمة، فإن الثابت وما يظل أقرب إلى الصحراوي هو الشاي (الممثل لدم الإله) وليس لحمه لأنه من طبيعة سائلة، فنجد أن غوما مثلاً قد "احتسى كوب الشاي وترك الأطعمة في الطبق"⁸⁰ ناهيك عن كون الميوعة هي الحالة السابقة أو اللاحقة للغذاء، والطبيعة التي "تمثل تاريخه الكلي أي حقيقته إذن"⁸¹، والسيولة؛ خاصية الاسطقس الثمين الأكثر ندرة في محيط الجفاف والظماً هذا؛ الماء. حيث يقوم الخيال المادي بوضع أحد العناصر البدائية جذر الصور المادية كافة⁸². ولعل أنهار الجنة المنهمرة خمراً ولبناً وعسلاً في المخیال الإسلامي أن تكون بعضاً من يوتوبيا الجريان والانسيابية التي تراود حلم المسلم في واقعه الجاف والمتقشف. وقد ورد في القرآن الكريم: ((مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ))⁸³

يتوحد أكل القربان في هذه الوليمة الطقسية مع الإله؛ وهو إذ يشرب كأس الشاي فإنه يتوحد مع الروح النباتية الثاوية فيه. ومن بين أسماء التقدمة المقدسة أيضاً؛ "الشركة" و"الاتحاد"⁸⁴ إذ يقع في خلد المتشاركين في الطقس أن اللحظة التي يتناولون فيها جسد الفادي ودمه "لتضعهم خارج الزمان وخارج المكان في ومضة خاطفة وتفتح لهم بوابة الأبدية"⁸⁵ المسقط على دورة البعث والتجدد النباتية. ثم إن إخراج القربان من الصيغة العضوية [اللحم والدم] وجعله نباتياً خالصاً، مع التركيز فيه على خاصية السيولة، لهو انتصار لقوة الطبيعة النباتية، وانحياز واضح لقيم سريان الحياة فيها مع النسغ الغذائي الساري في النبات الأخضر.

3-5- التكرار:

يستوفي تناول الشاي عناصره الطقسية الملازمة لشعائر المقدس حينما يصطبغ بالتكرارية ويتوسم بالإعادة، حيث "البعد المقدس يمتلك قدرة مميزة على أن يتكرر إلى ما لانهاية"⁸⁶؛ فالشاي الأخضر يؤخذ في أدوار ضمن الجلسة الواحدة، وتتركز هذه الأدوار باختلاف فترات النهار، كما أنه من الشعائر اليومية التي يحرص الصحراوي على أدائها بتفان ولهفة. يشقّ هذا التكرار طريقه لإلغاء خطية الزمان المفنية، ويقود إلى الاستمساك بالإيقاع الدوري الذي يكفله التكرار ويضمّنه تعاور المواسم الدورية⁸⁷ و"إذا كان الزمان الدنيوي زماناً خطياً يسير من الماضي إلى المستقبل عبر الحاضر، بطريقة لا رجعة فيها، فإن الزمن القدسي هو زمن عكوسي يمكن استعادته وعيشه من خلال الطقس الدوري"⁸⁸.

6- الرمزية الليلية:

تمثل عملية الهضم إحدى أهم صور الحميمية؛ كونها تصدر عن "الحدس الحسي العضوي الأكثر بدائية"⁸⁹، و"الابتلاع" يمثل أبلغ صيغ تأملات العمق، والأنموذج الأمثل للحميمية الصميمة حيث تتجمع قرائن الجوهريّة حول القرارة الغائرة للمعدة وقنوات الهضم المخولة بالاستملاك وتحويل الجوهر. ويضمن فعل الاجتياف الاتحاد الأمثل والتام بالمزرد على مستوى سداف الأحشاء وإحداث التسوية بين الهاضم والمهضوم، وتتبدى خلفية الرمزية الليلية⁹⁰ المهادنة والباعثة على الألفة والمساكنة بما يمدّ من بسطة القيم القمرية على أفعال الاغتذاء والارتواء. وفي سيرة الأوراق ذاتها- وهي توارى عن عين الشمس في الصناديق

الموصدة والأجربة المدسوسة بين المتاع، وتودع بعد ذلك في ظلمة أحشاء الوعاء كي تحيا وتبتعث، مستعيدة هيئتها المكتملة الأولى نُضْرَةً وطَزَاجَةً- انسجام مع القوى الليلية وتناغم مع الإيقاعات القمرية الحميمة والمسالمة التي لا تخذشها مقتضيات السوق الاحتكارية وجشع رأس المال؛ المطبوعة على القيم النهارية [ذكورية التصنيف] أو بالغزو وقطع طريق القوافل، وإنما يحصل الطوارق على أوراقه الفردوسية مقايضةً؛ كما يكشف هذا المقطع: "هذا شاي فريد يا شيخ خليل. لقد شممت رائحته على بعد خمسين خطوة من هنا. من أين حصلت عليه بالله؟ ابتسم أخواد وقال خليل:

-بمحض الصدفة. قايضته بمعزاة مع تاجر من التبو مرّ علينا قبل أيام. هذه مجرد صدفة"⁹¹ إن شراب الشاي؛ إذ يستعيد سيرة الدورة النباتية في الميثولوجيات الزراعية، فإنه ينسجم مع معتقدات تقديس الأم الكبرى ويتصل بعبادة القمر ليلية الانتماء ، وهي تتجسد في الربة "تانيت" سيدة القمر والأم الكبرى للطوارق، المختزلة رمزيا في المثلث المرفق أحيانا بالهلال، وهي عبادة أنثوية تنحاز إلى كل ما هو سري وليلي ومعتم ورطب وغامض"⁹² .. "جلس بصحبة أعيان القبيلة في الاجتماع التقليدي حول عدة الشاي الأخضر محتمين في إحدى العشيات بظلال جهة الخيمة الشرقية من الشمس التي وإن آلت إلى الزوال وترحزحت أخيرا في زحفها البطيء وانحازت نحو الغرب، إلا أنها استمرت تصلي الكائنات بسياط النار"⁹³

7- النكهة الإلهية:

إن الشاي، شأنه شأن الخمر، من المشروبات الملحقة بالآلهة والمسربة إلى البشر كرما من الآلهة أو اختلاسا. وقد تكفل الإله ديونيسوس بالخمرة عند الإغريق، فهي المشروب الروحي السعيد الذي يسري في النفس بكل ما يشتهى ويطيب، متدبرا أمر كل الأحلام والاستهيامات، مهما تعارضت، بلا عي؛ ذلك أنه مشروب إلهي مفارق للشرط البشري المحدود، ومتجاوز للقوانين الإنسانية، وقد صورت النقوش والرسومات في الحضارات القديمة مجالس شراب اختصت بها مجامع الآلهة، وجاء تمثيلها وتقليدها من قبل البشر- الأتباع محاكاة وتكرارا لأفعال أولى ابتدرتها الآلهة أولا، واتخذت لها المعابد والأقداس موطئا، ومثلت فيها أعياد الاحتفال بالآلهة موعدا.

ولا يشذ الشاي عن سيرة ابن الكرمة في هذا؛ وهو الأوراق المهربة من الجنان السماوية الضائعة بالواحة الأولى-واو- " شراب الفردوس، السائل الخرافي الذي يشبهه الصحراويون بشراب واو الموعود، ولم يذوقوا طعما لشراب يوازيه متعة منذ أخذ الجد الأول أوراق النبتة السحرية من واو ودخل بها الصحراء، اتخذه الأحفاد تميمة لا تفارق متاعهم، يحضرونه في طقوس جليلة، فيزيل شقاء الطريق ويشفي من وعثاء الأسفار، يبرئ الصداع وينفع البرد والحرّ، يمسح الهمّ والألم ويشحن النفس بالفرح والوجد يشم المسافر رائحته على مسافة يوم ونصف فيمتهدي بها إلى النجوع لينجو من العطش والموت"⁹⁴

يشيد الشاي للصحراوي- الشقي فردوسا أرضيا بديلا، يحفظ له بعضا من أثر النعيم القديم، ويبقي له على طيف من فيض لذادة المشروبات المتدفقة أنهارا من اللذة والمتعة في واحة "واو" العليّة؛ "رشف غوما من الكوب الزجاجي الصغير المتوج برغوة كثيفة، قال وهو يمط شفتيه:

آه.. هذا شيء آخر، هذه نكهة إلهية، هذا شاي لم أشرب أذ منه، سبحان الله ما أَلَدَه! سوف تعيرني منه حفتين يا شيخ خليل، سأظل وراءك حتى أنتزع منك نصيبي [...] هذا ليس شايًا إنه سحر! بلسم الحياة الذي يشفي أمراض الروح وآلام الصحراء"⁹⁵

إن الصحراوي، وقد أضناه عذاب المنفى الأرضي، وهَدَّتْه معانته الحرمان والتقشف، وهاج به الحنين إلى أصله السماوي، بعد أن اغتربت روحه، وقد وجدت نفسها رهينة محبس الطين، ليتعلّل بخلاصة أوراق نبتة "واو" تعرج به على أجنحة "النكهة الإلهية" إلى الوطن السماوي الأول، ترفو ما تفتق من روحه، وتتعهد ما خلفته فيه الصحراء من أوصاب، بالرعاية؛ وتسري عنه وحشة الفرقة؛ فالشاي "بلسم رباني يشفي من أمراض الروح وآلام الصحراء"⁹⁶، لذلك صار إدمانه حتماً على من طوحت بهم الخطيئة الفموية الأولى في قعر الأوجاع. وبات الحنين لهم قدراً؛ "الحنين قدر الصحراوي الأول. والانتماء المزدوج هو الذي خلق منه قدراً. فيوم انفصل عن أمه الأرض بقوة الروح السماوية الإلهية، التي نفخت من نَفْسِها في كتلة الطين، كان عليه أن يعاني غربة مزدوجة. فهو نفي من الفردوس السماوي وانفصل عن الله. نزل إلى الأرض [...] حلّ في حفنة الطين قبل أن يبلغ الأصل الآخر، الأكبر، الأرحم، والأعظم: الصحراء. فظل المخلوق كائناً معلقاً بين السماء والأرض. البدن يسعى للعودة إلى وطنه الصحراء، والروح تحنّ عشقاً لأن تتحرر من الحبس الأرضي وتطير إلى أصلها السماوي"⁹⁷

8- الشاي والمعرفة:

مثّل الفم المعبر الأول للمعرفة؛ مذ اختبر آدم مذاق الفاكهة المحرمة، وانكشف له ما كان يجهله، إذ أنه و"بالطقس الاستدخالي، هبط آدم من الحلم إلى الواقع، باع روحه لقاء المعرفة والحقيقة"⁹⁸، ومثله يفعل الطفل وهو "يحمل إلى فمه الأشياء قبل أن يعرفها، لكي يتعرّف عليها"⁹⁹ إنه نوع من التملك عن طريق الاستدخال؛ يتم فيه إسقاط الاستمراء الهضمي عبر التجويفات المتصلة والأعضاء المجزّنة والطاحنة من أجل تسهيل التحويل واستخلاص الجوهر الغازي، على فعل المعرفة والاكتشاف.

حيث يستعان بالطعام وسلاسة عبوره في كل طقس عبور استلهاها لمسالكه العبورية السهلة، وقنواته المجوّفة؛ إذ يمثل الاستملاك الهضمي النوع الأمثل¹⁰⁰ وهو يقَرّ الشيء الممتلك في القرارة الأشد حميمية وضمناً، فليس غريباً، وال حال هذه، أن يلتقي خطأ الأكل والمعرفة على الطبيعة النهمة التي توحد كلّاً من الشَّرِّه والشَّغوف بالعلم على النطاق نفسه. ف"في اللقمة سرّ أبهى من أي شيء، سمّ الحقيقة أَلذ من أي طعام، الحقيقة هي الكنز المخفي في اللقمة والنارثمن الحقيقة، ثمن الحرام"¹⁰¹

خاتمة

إذا كانت "الأغذية هي التي ترسم سمات وجودنا في العالم"¹⁰²، فإن الصحراوي المتقشف ليجد في الشاي الأخضر يوتوبيا الريّ المنشودة، ويرسل حلمه بالجريان يصعّد مع شهقة علو الإناء المتكسرة على الكأس رغبة تطفح بها جنباته سلسبيلاً. تستدعي نعيماً سماوياً ضيعه الجدّ الأول وراح يتوسل إليه بظلاله، وتستدرج عدناً أرضية تشققت وغامت في صدوع الانسراخ عن الأصل..

إن رواية الشاي الأخضر عند الكوني لتندفق، اشتقاقاً، بدلالات السيلان، وتفويض بمعاني الارتواء جداول تسحّ عبر نصوصه صورا سائلة، وتنضح بخصائص اسطقس الخصب والحياة مع الماء. وحين تعقد الوشائج

في النصوص المنتقاة، مع معتقدات الخصب الزراعية وتمكّن لها من وراء حجب الجفاف والقحط المسدلة على وجه العوالم السردية، فإنها توحى، سرّاً، بتمجيد تقاليد الزرع والبذار المزدراة علانية في نصوص الرعي والتّرحل.

الهوامش والإحالات:

- ¹. غاستون باشلار (1984)، جماليات المكان، ت. غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط. 02، بيروت، ص. 155.
- ². إيمانويل ليفيناس (2015)، الزمن والآخر، ت. منذر عياشي، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، ط. 01، دمشق، ص. 36.
- ³. رولان بارت (2018)، الأسطوريات، ت. توفيق قريرة، ط. 01، منشورات الجمل، ط. 01، بيروت-بغداد، ص. 88.
- ⁴. نفسه، ص. 88.
- ⁵. إبراهيم الكوني (1992)، المجوس، ج. 01، ط. 02، دار التنوير، تاسيلي للنشر والإعلام، بيروت، ج. 01، ص. 242.
- ⁶. غاستون باشلار (2018)، الأرض وأحلام يقظة الراحة: بحث في صور الحميمية، ت. قيصر جليدي، دائرة الثقافة والسياحة، كلمة، ط. 01، أبو ظبي، ص. 364.
- ⁷. إبراهيم الكوني (1991)، البئر، تاسيلي للنشر والإعلام-دار التنوير، ط. 02، بيروت، ص. 21.
- ⁸. كارول كونهان (2013)، أنثروبولوجيا الطعام والجسد: النوع والمعنى والقوة، ت. سهام عبد السلام، المركز القومي للترجمة، ط. 01، القاهرة، ص. 106.
- ⁹. عبد الأحد السبتي-عبد الرحمان لخصاصي (1999)، من الشاي إلى الأتاي: العادة والتاريخ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ط. 01، الرباط، ص. 154.
- ¹⁰. سيغموند فرويد (1983)، الطوطم والطابو: بعض المطابقات في نفسية المتوحشين والعصابيين، ت. ياسين بوعلي، ط. 01، دار الحوار، ط. 01، اللاذقية، ص. 164.
- ¹¹. دليلة زغودي (2017)، سيمولوجيا أنساق الطعام الرمزية عند بارت، ضمن الكتاب الجماعي: أهواء بارت ومغامرات البارتية، كلمة للنشر والتوزيع، دار الأمان، منشورات الاختلاف، وضاف، ط. 01، تونس-الرباط-الجزائر-بيروت، ص. 220.
- ¹². غاستون باشلار (2007)، الماء والأحلام: دراسة عن الخيال والمادة، ت. علي نجيب إبراهيم، المنظمة العربية للترجمة، ط. 01، بيروت، ص. 175.
- ¹³. إبراهيم الكوني (1991)، الواحة، ط. 02، تاسيلي للنشر والإعلام-دار التنوير، ط. 02، بيروت، ص. 18.
- ¹⁴. سيغموند فرويد (1983)، ثلاثة مباحث في نظرية الجنس، ت. جورج طرابيشي، ط. 02، دار الطليعة، ط. 02، بيروت، ص. 56.
- ^{*}. عورة الرجل عند الطوارق فمه، يقول الكوني: "يستر العورة التي تلقت لقمة الحرام أول مرة وحرمت السلف من نعيم الإقامة في" واو"؛ المجوس، ج. 02، ص. 657.
- ¹⁵. سيغموند فرويد، الطوطم والطابو، ص. 137.
- ¹⁶. عبد الرحيم العطري (2016)، قرابة الملح: الهندسة الاجتماعية للطعام، شركة المدارس، ط. 01، الدار البيضاء، ص. 185.
- ¹⁷. الأعراف، الآية 21.
- ¹⁸. المقاري. الراهب إبيفانيوس المقاري (2012)، سفر التكوين، الأصحاح الثالث، دار مجلة مرقص، ط. 01، القاهرة، ص. 29-30.

- ¹⁹. كارول كونيهان ، أنثروبولوجيا الطعام والجسد، ص.106.
- ²⁰. عبد الرحيم العطري. عبد الرحيم، قرابة الملح، ص.197.
- ²¹. إبراهيم الكوني (1991)، نداء الوقواق، تاسيلي للنشر والإعلام- دار التنوير، ط.02، بيروت، ص.140.
- ²². إبراهيم الكوني (1991)، الواحة، تاسيلي للنشر والإعلام- دار التنوير، ط.02، بيروت، ص.141.
- ²³. إبراهيم الكوني، الواحة، ص.18.
- ²⁴. إبراهيم الكوني. إبراهيم، البئر، ص.112.
- ²⁵. نفسه، ص.107.
- ²⁶. نفسه، ص.127.
- ²⁷. رولان بارت (2000)، شذرات خطاب في العشق، ت. إلهام سليم حطيط وحبيب حطيط، ط.01، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ط.01، الكويت، ص.100.
- ²⁸. سيغموند فرويد، ثلاثة مباحث في نظرية الجنس، ص.72.
- *. الأخضر هولون أوزيريس الذي يشير إلى القيامة عند المصريين، واللون الذي يرمز للربيع عند الصينيين. ينظر: فيليب سيرج (1992)،: الرموز في الفن- الأديان- الحياة، ترجمة عبد الهادي عباس، دار دمشق، ط.01، سورية، ص.422-423.
- ²⁹. إبراهيم الكوني، الواحة، ص.17-18.
- *. يجد فيه الصحراوي المجبول من معدن الترحل شيئا ويسقط عليه صورته.
- *. ينعت تموز "بالأخضر"، لأنه ربّ الإنبات وسيدّ الدورة الزراعية. ينظر: فراس السواح، لغز عشّار، ص.277.
- ³⁰. فراس السواح (2002)، لغز عشّار، -الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة، دار علاء الدين، ط.08، دمشق، ص.277.
- ³¹. نفسه، ص.110.
- ³². مرسيا إلياد (2018)، المقدس والديني، ت. أحمد آيت إحسان، دار الحوار، ط.01، بيروت، ص.136.
- ³³. جيلبير دوران (2006)، الأنثروبولوجيا: رموزها أساطيرها وأنساقها، ت. الصمد مصباح، مؤسسة الجامعية للنشر والدراسات والتوزيع، ط.03، بيروت، ص.237.
- ³⁴. إبراهيم الكوني، البئر، ص.112-113.
- ³⁵. ينظر، مرسيا إلياد، المقدس والديني، ص.137.
- ³⁶. جيلبير دوران، الأنثروبولوجيا: رموزها أساطيرها وأنساقها، ص.233.
- ³⁷. إبراهيم الكوني، أخبار الطوفان الثاني، ص.79.
- ³⁸. رولان بارت، الأساطوريات، ص.94.
- ³⁹. إبراهيم الكوني، البئر، ص.75.
- ⁴⁰. فراس السواح. لغز عشّار، ص.105.
- ⁴¹. رولان بارت. (1999)، هسهسة اللغة، ت. منذر العياشي، مركز الإنماء الحضاري، ط.01، حلب، ص.360.
- ⁴². إبراهيم الكوني، البئر، ص.131.
- ⁴³. رولان بارت، هسهسة اللغة، ص.359-360.
- ⁴⁴. جيلبير دوران، الأنثروبولوجيا: رموزها أساطيرها وأنساقها، ص.236.
- ⁴⁵. غاستون باشلار. الماء والأحلام: دراسة عن الخيال والمادة، ص.175.
- * من وجهة التحليل النفسي، كل ماء حليب، وبتحديد أدق كل مشروب سعيد حليب أمومي" ينظر، نفسه، ص.174.

- ⁴⁶ . إبراهيم الكوني، أخبار الطوفان الثاني، ص.95.
- ⁴⁷ . غاستون باشلار، الماء والأحلام، ص.185.
- ⁴⁸ . إبراهيم الكوني، البئر، ص.ص.112-113.
- ⁴⁹ . إبراهيم الكوني، نداء الوقواق، ص.75.
- ⁵⁰ . إبراهيم الكوني، أخبار الطوفان الثاني، ص.142.
- ⁵¹ . فراس السواح، لغز عشتار، ص.48.
- ⁵² . نفسه، ص.48.
- ⁵³ . نفسه، ص.110.
- ⁵⁴ . حبيب جرجس (دس)، أسرار الكنيسة السبعة، مكتبة المحبة، ط.04 القاهرة، ص.27.
- ⁵⁵ . نفسه، ص.21.
- ⁵⁶ . إبراهيم الكوني (1992)، المجوس، دار التنوير، تاسيلي للنشر والإعلام، ط.02، بيروت، ج.02 ص.189.
- ⁵⁷ . إبراهيم الكوني، البئر، ص.75.
- * . عبدت عشتار في الشجرة، ومثلت قريش إلهتها الأم في شجرة يقال لها "ذات أنواط"، وعبدت عشيرة الكنعانية في شجرة السنديان ينظر؛ فراس السواح، لغز عشتار، ص.110-115.
- ...ولعل «شجرة الطلح» في سرود الكوني الصحراوية أن تحمل رمزية "الشجرة المقدسة" الممثلة لـ «روح الغاب»، رمز الخصوبة وقوة الإنبات والتجدد.
- ⁵⁸ . سورة يس، الآية، 79.
- ⁵⁹ . فراس السواح، لغز عشتار، ص.129.
- ⁶⁰ . إبراهيم الكوني، الواحة، ص.194.
- ⁶¹ . جيلبير دوران، الأنثروبولوجيا؛ رموزها أساطيرها وأنساقها، ص.222.
- ⁶² . إبراهيم الكوني، الواحة، ص.81.
- ⁶³ . جيلبير دوران، الأنثروبولوجيا؛ رموزها أساطيرها وأنساقها، ص.219.
- ⁶⁴ Otto Rank(2002), le traumatisme de la naissance, Payot, Paris, pp.21-22.
- ⁶⁵ . مرسيا إلياد، المقدس والديوي، ص.15.
- ⁶⁶ . إبراهيم الكوني، المجوس، ج.01، ص.242.
- ⁶⁷ . فراس السواح، لغز عشتار، ص.113.
- ⁶⁸ . فراس السواح (2001)، الأسطورة والمعنى؛ دراسات في الميثولوجيا والديانات الشرقية، دار علاء الدين، ط.02، دمشق، ص.ص.185-186.
- ⁶⁹ . جيلبير دوران، الأنثروبولوجيا؛ رموزها أساطيرها وأنساقها، ص.237.
- ⁷⁰ . فراس السواح، لغز عشتار، ص.117.
- * . تؤنث اللغة العربية الكأس، ما يضع هذا المشروب في مجرى تدفق الأنثوي؛ ورد في لسان العرب "والكأس مؤنثة، قال الله تعالى: بكأس من معين بيضاء، وأنشد الأصمعي لأمية بن أبي الصلت: (...)
- مَنْ لَمْ يَمُتْ غَبَطَةً يَمُتْ هَرَمًا لِلْمَوْتِ كَأْسٌ، وَالْمَرْءُ ذَائِقُهَا "
- ابن منظور (دس)، لسان العرب، دار صادر، د.ط، بيروت، ص.188.
- ⁷¹ . جيلبير دوران، الأنثروبولوجيا؛ رموزها أساطيرها وأنساقها، ص.233.

- ⁷² . نفسه، ص.232.
- ⁷³ دوران. جيلبير، الأنثروبولوجيا؛ رموزها أساطيرها وأنساقها، ص.219.
- ⁷⁴ . فراس السواح (2021)، عبادة الأحجار عند الساميين وأصل الحجر الأسود، دار التكوين، ط.01، دمشق، سورية، ص 238-244.
- * . سرّ الشكر أو الأفخاريستيا: هو سر مقدس به يأكل المؤمن جسد المسيح الأقدس، ويشرب دمه الزكي تحت أعراض الخبز والخمر"
- ينظر؛ أسرار الكنيسة، ص.57.
- ⁷⁵ . حبيب جرجس، أسرار الكنيسة السبعة، ص.85.
- ⁷⁶ . ألحقت بالمسيح كل الصفات التي سمت تموز وأدونيس في المنطقة وعد روح القمح أيضا
- ينظر، فراس السواح، مغامرة العقل، ص 369-374.
- ⁷⁷ . عن فراس السواح، لغز عشتار، ص 401-402.
- ⁷⁸ . مرسيا إلياد(1987)، أسطورة العود الأبدي، ت. خياطة. نهاد، دار طلاس، ط.01، دمشق، ص.18.
- ⁷⁹ . فراس السواح، لغز عشتار، ص.402.
- * . هو خبز يعجن من دقيق القمح الصلب، وينضج بدفنه في أعماق الرمل الحار.
- ⁸⁰ . إبراهيم الكوني، الواحة، ص.187.
- ⁸¹ . رولان بارت، هسهسة اللغة، ص.358.
- ⁸² . غاستون باشلار، الماء والأحلام، ص.174.
- ⁸³ . سورة محمد، الآية. 16.
- ⁸⁴ . حبيب جرجس، أسرار الكنيسة، ص.57.
- ⁸⁵ . فراس السواح، لغز عشتار، ص.403.
- ⁸⁶ . جيلبير دوران. ، الأنثروبولوجيا؛ رموزها أساطيرها وأنساقها، ص.277.
- ⁸⁷ . مرسيا إلياد، أسطورة العود الأبدي، ص.168.
- ⁸⁸ . فراس السواح، الأسطورة والمعنى، ص.143.
- ⁸⁹ . جيلبير دوران، الأنثروبولوجيا؛ رموزها أساطيرها وأنساقها، ص.226.
- ⁹⁰ . نفسه، ص.234.
- ⁹¹ . إبراهيم الكوني، البئر، ص.126.
- ⁹² . سيرج فيليب، الرموز في الفن- الأديان، ص.362.
- ⁹³ . إبراهيم الكوني، الواحة، ص.31.
- ⁹⁴ . إبراهيم الكوني. إبراهيم، المجوس، ج.01، ص.242.
- ⁹⁵ . إبراهيم الكوني، البئر، ص.127.
- ⁹⁶ . نفسه، ص.131.
- ⁹⁷ . إبراهيم الكوني، المجوس، ج.01، ص 462-463.
- ⁹⁸ . فراس السواح، مغامرة العقل الأولى، ص.254.

- ⁹⁹ غاستون باشلار (1982)، تكوين العقل العلمي -مساهمة في التحليل النفسي للمعرفة الموضوعية، ت. خليل أحمد خليل، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط. 02، بيروت، ص. 135.
- ¹⁰⁰ . نفسه، ص. 135.
- ¹⁰¹ . إبراهيم الكوني، المجوس، ج. 01، ص. 662.
- ¹⁰² . إيمانويل ليفيناس، الزمن والآخر، ص. 36.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

1. بالعربية:

- إبراهيم الكوني (1991)، البئر، تاسيلي للنشر والإعلام- دار التنوير، ط. 02، بيروت.
- إبراهيم الكوني (1991)، الواحة، ط. 02، تاسيلي للنشر والإعلام- دار التنوير، ط. 02، بيروت
- إبراهيم الكوني (1991)، نداء الوقواق، تاسيلي للنشر والإعلام- دار التنوير، ط. 02، بيروت.
- إبراهيم الكوني (1991)، الواحة، تاسيلي للنشر والإعلام- دار التنوير، ط. 02، بيروت
- إبراهيم الكوني (1992)، المجوس، دار التنوير، تاسيلي للنشر والإعلام، ط. 02، بيروت، ج. 02 ص. 189.
- إبراهيم الكوني (1992)، المجوس، ج. 01، ط. 02، دار التنوير، تاسيلي للنشر والإعلام، بيروت، ج. 01
- حبيب جرجس (د.س)، أسرار الكنيسة السبعة، مكتبة المحبة، ط. 04 القاهرة
- دليلة زغودي (2017)، سيميولوجيا أنساق الطعام الرمزية عند بارت، ضمن الكتاب الجماعي؛ أهواء بارت ومغامرات البارتية، كلمة للنشر والتوزيع، دار الأمان، منشورات الاختلاف، وضاف، ط. 01، تونس- الرباط- الجزائر- بيروت
- عبد الأحد السبتي- عبد الرحمان لخصاصي (1999)، من الشاي إلى الأتاي؛ العادة والتاريخ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ط. 01، الرباط
- عبد الرحيم العطري (2016)، قرابة الملح؛ الهندسة الاجتماعية للطعام، شركة المدارس، ط. 01، الدار البيضاء
- فراس السواح (2001)، الأسطورة والمعنى؛ دراسات في الميثولوجيا والديانات الشرقية، دار علاء الدين، ط. 02، دمشق
- فراس السواح (2002)، لغز عشتار، -الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة، دار علاء الدين، ط. 08، دمشق.
- فراس السواح (2002)، لغز عشتار، -الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة، دار علاء الدين، ط. 08، دمشق
- فراس السواح (2021)، عبادة الأحجار عند الساميين وأصل الحجر الأسود، دار التكوين، ط. 01، دمشق، سورية
- المقاري. الراهب إبيفانيوس المقاري (2012)، سفر التكوين، الأصحاح الثالث، دار مجلة مرقص، ط. 01، القاهرة
- ابن منظور (د.س)، لسان العرب، دار صادر، د.ط، بيروت،

2. المترجمة إلى العربية

- إيمانويل ليفيناس (2015)، الزمن والآخر، ت. منذر عياشي، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، ط. 01، دمشق
- رولان بارت. (1999)، هسهسة اللغة، ت. منذر العياشي، مركز الإنماء الحضاري، ط. 01، حلب
- رولان بارت (2000)، شذرات خطاب في العشق، ت. إلهام سليم حطيط وحبيب حطيط، ط. 01، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ط. 01، الكويت
- رولان بارت (2018)، الأسطوريات، ت. توفيق قريرة، ط. 01، منشورات الجمل، ط. 01، بيروت- بغداد.
- سيغموند فرويد (1983)، الطوطم والطابو؛ بعض المطابقات في نفسية المتوحشين والعصابيين، ت. ياسين بوعلي، ط. 01، دار الحوار، ط. 01، اللاذقية

- سيغموند فرويد (1983)، ثلاثة مباحث في نظرية الجنس، ت. جورج طرايشي، ط.02، دار الطليعة، ط.02، بيروت،
- غاستون باشلار (1982)، تكوين العقل العلمي - مساهمة في التحليل النفسي للمعرفة الموضوعية، ت. خليل أحمد خليل،
المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط.02، بيروت
- غاستون باشلار (1984)، جماليات المكان، ت. غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط.02، بيروت،
- غاستون باشلار (2007)، الماء والأحلام؛ دراسة عن الخيال والمادة، ت. علي نجيب إبراهيم، المنظمة العربية للترجمة، ط.01،
بيروت.
- غاستون باشلار (2018)، الأرض وأحلام يقظة الراحة؛ بحث في صور الحميمية، ت. قيصر جليدي، دائرة الثقافة والسياحة،
كلمة، ط.01، أبو ظبي.
- كارول كونهان (2013)، أنثروبولوجيا الطعام والجسد؛ النوع والمعنى والقوة، ت. سهام عبد السلام، المركز القومي
للترجمة، ط.01، القاهرة،
- فيليب سيرج (1992)، الرموز في الفن- الأديان- الحياة، ترجمة عبد الهادي عباس، دار دمشق، ط.01، سورية
- مرسيا إلياد (1987)، أسطورة العود الأبدي، ت. خياطة. نهاد، دار طلاس، ط.01، دمشق
- مرسيا إلياد (2018)، المقدس والديوي، ت. أحمد آيت إحسان، دار الحوار، ط.01، بيروت.
ج. الأجنبية:

- Otto Rank (2002), le traumatisme de la naissance, Payot, Paris